الشيخ عبد الرحمن بن قاسم .. بين
ثاقب نظر إمام الحرمين ت (٤٨٧هـ) وفراسة ابن مري الحنبلي ت بعد (٧٢٨هـ)
وعزيمة ابن عبد الهادي ت (٧٤٤هـ)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

فغالباً ما تحفظ لنا كتب التراجم ودواوين التاريخ كلمات تدل وتنبئ عن ثاقب نظر وقوة فراسة وصادق عزيمة وغير ذلك ، وتكون تلك الكلمات مبتدأ لخبر يقع بعده بحقبة أو أحقاب طويلة ، ومن خلال النظر والبحث والاستقراء نجد أن النتيجة تكاد تكون مطابقة لما توقعوه وسطروه ، وهذا من بوادر التوفيق الإلهي أولاً ، ثم من صدقهم ثانياً .

ومن باب تأكيد هذا الاستنتاج الغالب يقال : لقد وقفت على ثلاث كلمات لثلاثة من الأئمة :

الأولى : تدل على ثاقب نظر وبصيرة ، وهي لأبي المعالي الجويني الذي قال : (ما من شافعي إلا وللشافعي عليه المنة ، إلا أبا بكر البيهقي ، فإن المنة عليه للشافعي ؛ لتصانيفه في نصرة مذهبه) تذكر الحفاظ ٢ ص١١٣٣ .

الثانية : تدل على قوة فراسة ، وهي للإمام ابن مري الحنبلي ، عندما قال : (ووالله إن شاء الله تعالى ليقيمن الله لنصر هذا الكلام – كلام شيخ الإسلام ابن تيمية – ونشره وتدوينه وتفهمه واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائبه رجالاً هم الآن في أصلاب آبائهم) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ص٨ - ٩ .

الثالثة : تدل على صادق عزم ، وعظيم همة ، وهي للإمام ابن عبد الهادي ، فبعد أن سرد مصنفات شيخ الإسلام قال : (سأجتهد – إن شاء الله تعالى – في ضبط ما يمكنني من ضبط مؤلفاته في موضع آخر غير هذا ، وأبين ما صنفه منها بمصر وما ألفه منها

بدمشق وما جمعه وهو في السجن ، وأرتبه ترتيباً حسنا غير هذا الترتيب ، بعون الله تعالى وقوته) العقود الدرية

وبعد سياق هذه الجمل النفسية لأهل العلم ، لعلي لا أخطئ الصواب – إن شاء الله تعالى – إن قلت إنها بمضامينها اجتمعت في جملتها للشيخ الفقيه المصنف الجامع ، صاحب الهمة العالية والقلم المصابر والحواشي النفيسة عبد الرحمن بن محمد بن قاسم – رحمه الله تعالى – الذي أثنى عليه من عاصره وكثير ممن أتى بعده ، فهذا الشيخ المجاهد الصابر الزاهد ممن كان له فضل بعد الله تعالى على كثير من أهل العلم علماء وطلبة علم ممن عاصره وممن أتى بعده إلى ما يشاء الله تعالى ، ويتبين ذلك من خلال جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم لـ ((مجموع فتاوى شيخ الإسلام)) : وإني لأحسب أن ما بذله من جهد مالي وبدني ووقتي ، وما تكبده من مشاق السفر والتغرّب عن الأهل والولد والبلد في سبيل تحصيل العلم عامة وفي جمعه لما تفرق وتناثر من علم لشيخ الإسلام بخاصة ، من أعظم القربات عند الله تعالى ، ومما يؤكد ذلك ويصدقه ما كان لذلك المجموع العظيم من النفع العظيم ماضيا ومضارعا ومستقبلا – إن شاء الله تعالى - ، وإني لا أكاد أجزم أن هذا المجموع لا تخلو في الغالب مكتبة خاصة أو عامة ، حكومية كانت أو أهلية أو خيرية إلا وله مكان فيها .

وعوداً على بدء ، فبالنظر إلى هذا المجموع القيِّم والسفر العظيم لفتاوى ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يمكن أن يقال – بالقياس – على كلمة أبي المعالي الجويني : (للشيخ ابن قاسم أجر من استفاد من هذا المجموع ، بل لو أراد المنة في ذلك على من نظر فيه فذلك من حقه) ، وأما مقولة ابن مري وابن عبد الهادي : (فأحسب أن الشيخ ابن قاسم في هذا المجموع قد نشر ودوّن كثيراً من كلام ورسائل شيخ الإسلام ، وقد تفهم واستخرج كثيراً من مقاصد شيخ الإسلام في ما نشره الشيخ عبد الرحمن وألفه من الكتب والحواشي ، كما سيأتي) .

وبعد هذا يقال .. إن للشيخ عبد الرحمن ابن قاسم رحمه الله تعالى جهوداً عظيمة في خدمة العلم وأهله ، وبيان ذلك من وجوه أربعة :

الوجه الأول/ جمعه لـ ((الدرر السنية في الأجوبة النجدية)) : فهذا المجموع القيم أثنى عليه غير واحد من مشايخ العلم ، وفيه من العلم الغزير والتحقيق المفيد الشيء الكثير .

الوجه الثاني/ ما سطره الشيخ عبد الرحمن – رحمه الله تعالى – من تلك الحواشي النفيسة التي حوت دررا متنوعة من فنون العلم :

ومن تلك الحواشي :

(١) حاشية كتاب التوحيد .

(٢) حاشية الأصول الثلاثة .

(٣) حاشية الرحبية .

(٤) حاشية مقدمة التفسير .

(٥) حاشية على متن الأجرومية .

(٦) أما أكبر الحواشي التي كتبها الشيخ ، فهي حاشية الروض المربع ، فهي يحق أن تسمى بـ (أم الحواشي) ، لما ضمنها الشيخ من التعليقات النفيسة والتحريرات العلمية الرصينة .

وما أحسن ما حدثني به فضيلة الشيخ عبد المحسن العبيكان – أثابه الله تعالى – عندما جرى بيننا حديث عن الحاشية المذكورة ، فقال لي الشيخ ما معناه : أن الشيخ ابن قاسم سماها حاشية – تواضعا منه – وإلا فهي بحق أن تسمى شرحا .

وحدثني شيخي محمد المعيوف – أثابه الله تعالى - بما معناه : أن الشيخ ابن قاسم قد أودع كثيرا من أقوال واختيارات شيخ الإسلام في هذه الحاشية ، ذلك لدراية الشيخ عبد الرحمن وإطلاعه الواسع على كلام شيخ الإسلام ، وحسبك بالفائدة التي جناها الشيخ من جمعه لفتاوى شيخ الإسلام .

وهذه الحواشي – وبخاصة الأخيرة – قد لاقت قبولا واستحسانا وثناء من أهل العلم ، علماء وطلبة علم .

الوجه الثالث: ما ألفه الشيخ استقلالاً ، ومن ذلك :

١ - السيف المسلول على عابد الرسول .

٢ - أصول الأحكام .

٣ - شرح أصول الأحكام .

٤ - وظائف رمضان .

٥ - مقدمة في أصول التفسير ، - والحاشية السابقة رقم (٤) شرح لها - .

٦ - رسالة لطيفة في تحريم حلق اللحى .

الوجه الرابع: ما أنعم الله به على الشيخ من الذرية الصالحة من الأبناء والأحفاد التي تأثرت بوالدها وعالمها فحذت حذوه : فهذا الشيخ محمد – رحمه الله تعالى – قد كان عضدا لأبيه في كثير من جمعه وكتاباته ، وأبناء الشيخ الآخرون ، المشايخ سعد وأحمد ممن لهم جهود علمية كتابة ومشافهة .

ومن أحفاد الشيخ وأسباطه ثلة مباركة ممن لهم نشاط دعوي وجهد علمي ، ومن أولئك الشيخان عبد الملك وعبد المحسن أبناء محمد ، ومنصور ابن أحمد ، وغيرهم ممن نسيتهم أو لم أعرفهم .

ودار القاسم من فضل الله تعالى أولاً ثم فضل الشيخ عبد الرحمن أصلا والشيخ محمد تبعاً ، لأن صلاح الآباء يدرك صلاح الأبناء بفضل الله وتوفيقه .

ختاماً .. كان في نفسي اقتراحات لآل قاسم الأكارم بخاصة ، ولغيرهم من محبي العلم عامة ، أحببت أن أطرحها في هذا المقال :

الأول : أن تعاد طباعة مجموع الفتاوى بتنضيدا وصف جديدين يختصر كثرة المجلدات والأوراق مع طباعة الآيات بخط المصحف ، وعزو أوتخريج ما يستطاع من الأحاديث التي لم تعز، وذلك بالاستفادة مما كتب حول هذا المجموع من البحوث والرسائل .

الثاني : أن تجمع كل مؤلفات الشيخ عبد الرحمن – رحمه الله تعالى – في مجموع واحد ، سواء ما كتبه استقلالا أو ضمنها تلك الحواشي ، أو ما لم يطبع بعد إن كان هناك شيء ، ويسمى مجموع الشيخ عبد الرحمن ابن قاسم .

الثالث : أن تدوَّن سيرة الشيخ عبد الرحمن – رحمه الله تعالى – وما قام به من الجهد الدؤوب والعمل المتواصل حضرا وسفرا ، وما نتج من ذلك من المجاميع والكتب والرسائل بالإضافة إلى بعض جوانب حياة الشيخ الأخرى الخاصة والعامة ، ذلك لأن تراجم مثل هؤلاء المتأخرين له من الأثر الشيء الكثير في نفوس طلبة العلم ، ولقد حادثت غير واحد من أبناء وأحفاد الشيخ – رحمه الله تعالى – غير مرة – قديما وحديثا – في إخراج ترجمة للشيخ عبد الرحمن ، تكشف لطلبة العلم المعاصرين والأجيال القادمة شيئا من نشاطه العملي والعلمي والقلمي ، فقد بلغني من بعض أبناءه وأحفاده عجائب من صبره وجلده .

الرابع : اقترح أن تفرد رسالة علمية أو على الأقل بحث تكميلي في جهود الشيخ عبد الرحمن العلمية يوضح فيه طريقة عمله وذلك باستقراء لما جمع وصنّف وحشَّى .

الخامس : حبذا لو تسمى مدرسة أو قاعة أو شارع باسم الشيخ عبد الرحمن – رحمه الله تعالى – أسوة بغيره ، وإن كان حق العالم هو التبجيل والدعاء إلا أن تخليد اسمه مما يكون سببا من تعريف النشء به مع استمرار جريان الدعاء والترحم عليه .

شذرات عن الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله تعالى :

* كتاب (الزهر النضر في حال الخضر) ، للحافظ ابن حجر ، تحقيق : صلاح الدين مقبول ص٤٨ ، ذكر المحقق قولاً لشيخ الإسلام في حياة الخضر ثم نقض هذا القول – المنسوب إليه – بعدة أدلّة ، وكان مما قاله المحقق :

[تعليق الشيخ/ عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي (جامع فتاوى شيخ الإسلام) ، على هذه الفتوى بقوله : " هكذا وجدت هذه الرسالة " ، ثم قال المحقق : ومن

عادة جامع الفتاوى بأنه لا يعلّق مثل هذه التعليقات ولكنه – في نظري – اضطر إلى هـذا التعليق في هذا المكان لما رأى فيه من رأي شاذ حول حياة الخضر يخالف جميـع آراء شـيخ الإسلام فنبّه عليه .

وهذا التعليق من مرتب الفتوى الذي له اطلاع واسع ودقيق على جميع كتابات ابن تيميـة الموجودة مثير للشك ولا ريب أنه تعليق دقيق ووجيه في محله ولا بد منه] .

* سمعت بعض مشايخي يقول : إذا أردت اختيار أو قول شيخ الإسلام فانظر إلى حاشية الروض للشيخ ابن قاسم رحمه الله تعالى ، فإذا لم يذكر الشيخ ابن قاسم قـولاً لـشيخ الإسلام فقد يصعب الوصول إلى قوله ذلك لأن الشيخ عبد الرحمن بن قاسم مـن أدرى الناس بكلام شيخ الإسلام

رحم الله الشيخ عبد الرحمن ابن قاسم ، وجزاه خيرا على ما قدّم لأهل العلم ، وجعـل الفردوس الأعلى مثواه ، وبارك في علمه وعمله وذريته وأحفاده ..آمين يا رب العالمين.

إنك تعالى سميع مجيب ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

عبدالعزيز بن محمد بن عبد الله السدحان

* سبق كتابة هذا المقال ، ثم جرى عليه تعديل في مقدمته في الكتابة الأخرى .